

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ
المحاضرة ٢٤: باطلُ الأباطيلِ
أ.ر.سي. سبرول

بَيْنَمَا نُنْتَابِعُ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِ عَنِ إِيمَانِنَا - أَيِ عِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ - تَذَكُّرُونَ أَتْنِي تَنَاوَلْتُ فِي الْمَحَاضِرَةِ السَّابِقَةِ، بِإِيْجَازٍ، الْحُجَّةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ الْمُؤَيَّدَةَ لَوْجُودِ اللَّهِ، الَّتِي قَدَّمَهَا الْفَيْلَسُوفُ إِيمَانُويلَ كَانُظ. وَذَكَرْتُ أَنَّهُ تَنَاوَلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْ مَنْظُورٍ عَمَلِيٍّ، مُسْتَنْتَجًا أَنَّنَا يَجِبُ أَنْ نَعِيشَ كَمَا لَوْ أَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهُ. كَانَ كَانُظ، مِنْ مَنْظُورٍ مَنْطِقِيٍّ، وَعِلْمِيٍّ، وَنَظَرِيٍّ، لَا أُدْرِيًّا، فَقَالَ إِنَّنَا، بِأَسَالِينَا الطَّبِيعِيَّةَ لِلْبَحْثِ وَالتَّحْقِيقِ، لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَعْرِفَ بِوُجُودِ إِلَهُ. وَإِنَّمَا لِأَعْرَاضِ عَمَلِيَّةِ، يَجِبُ أَنْ نُسَلِّمَ بِوُجُودِ إِلَهُ، كَيْ يَكُونَ لِلْحَيَاةِ مَعْنَى، وَكَيْ يَكُونَ وُجُودُ الْمُجْتَمَعِ مُمَكِّنًا. وَنَظَرْنَا إِلَى صِيَاغَتِهِ لِهَذِهِ الْحُجَّةِ الْعَمَلِيَّةِ، انْطِلَاقًا مِنْ وَعْيِهِ بِهَذِهِ الضَّرُورَةِ الْحَتْمِيَّةِ، الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْبَشَرُ حَوْلَ الْعَالَمِ مَعًا.

وَفِي خِتَامِ تِلْكَ الْمَحَاضِرَةِ، ذَكَرْتُ أَنْ لَيْسَ الْجَمِيعُ فِي الْمَجَالِ الْفَلَسَفِيِّ وَافَقُوا عَلَى اسْتِنْتِاجِ كَانُظِ بِأَنَّنا يَنْبَغِي أَنْ نَعِيشَ كَمَا لَوْ أَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهُ. وَكَانَ بَعْضُهُمْ مِمَّنْ يُمَكِّنُ تَسْمِيَّتَهُمُ بِالسَّخِرِينَ أَوْ الشُّكُوكِيِّينَ الْأَقْوِيَاءِ، فَقَالُوا: "مُجَرَّدُ كَوْنِ الْبَدَائِلِ الْأُخْرَى لَوْجُودِ اللَّهِ غَيْرَ جَدَّابَةٍ لَيْسَ سَبَبًا لِلْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ. فَهَذَا أَشْبَهُ بِسِينَارِيُو أَلِيسِ فِي بِلَادِ الْعَجَائِبِ، حَيْثُ تَأْخُذُ نَفْسًا عَمِيقًا، وَتُعْمِضُ عَيْنَيْكَ، وَتَرْجُو بِكُلِّ مَا فِيكَ أَنْ يَكُونَ لِلْحَيَاةِ مَعْنَى وَأَهْمِيَّةٌ، وَأَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مَوْجُودًا بِالْأَعْلَى لِجُرِيِ الْعَدَلِ فِي التَّهَيَّاتِ، جَاعِلًا مِنْ ذَلِكَ أَسَاسًا لِإِيمَانِكَ".

دَعُونِي أَقُولُ مَا يَلِي قَبْلَ أَنْ نُنْتَابِعَ: فِي تَارِيخِ الْفَلَسَفَةِ وَالْفِكْرِ النَّظَرِيِّ، أَعْتَقِدُ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ قَطْعًا رَصْدَ أَلْفِ فَلَسَفَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَلَى الْأَقْل - مِنْهَا نَظَرِيَّاتٌ فَلَسَفِيَّةٌ، وَحَرَكَاتٌ فَلَسَفِيَّةٌ، إِلَى آخِرِهِ. لَكِنَّ هَذِهِ التُّظْمَ الْفَلَسَفِيَّةَ تَتَّبَعُ تَسْلُسُلًا. فَهِيَ تَقَعُ فِي مَكَانٍ مَا بَيْنَ قُطْبَيْنِ أَوْ طَرَفِي نَقِيضٍ. الطَّرْفُ الْأَوَّلُ هُوَ مَا أُسَمِّيهِ بِالْإِيمَانِ الْمُتَكَامِلِ بِوُجُودِ اللَّهِ. وَالتَّرْفُ الْآخَرُ هُوَ الْعَدَمِيَّةُ. وَالْعَدَمِيَّةُ لَا تَعْنِي فَقَطُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ إِلَهُ، لَكِنَّهَا تَذْهَبُ مِنْ هَذَا الْإِسْتِنْتِاجِ أَيْضًا إِلَى فِكْرَةِ عَدَمِ وُجُودِ مَعْنَى، أَوْ أَهْمِيَّةٍ، أَوْ هَدَفٍ لِلْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ. وَكُلُّ الْفَلَسَفَاتِ تَقَعُ فِي مَكَانٍ مَا عَلَى هَذَا الْخَطِّ، بَيْنَ هَذَيْنِ الْقُطْبَيْنِ.

إِذَا نَظَرْتُمْ إِلَى الْمَسِيحِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ - وَالْيَهُودِيَّةِ أَيْضًا - وَرَجَعْتُمْ إِلَى أَسْفَارِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، سَتَلَاحِظُونَ أَنَّ أَسْفَارَ الْحِكْمَةِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ صَارَعَتْ مَعَ هَذَيْنِ الْمَوْقِفَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ، وَلَا سِيَّمَا فِي سَفَرِ الْجَامِعَةِ، حَيْثُ غُرِضَ مَنْظُورَانِ مُخْتَلِفَانِ. لَدَيْنَا الْحَيَاةُ مِثْلَمَا تُعَاشُ تَحْتَ الشَّمْسِ، وَالْحَيَاةُ مِثْلَمَا تُعَاشُ تَحْتَ السَّمَاءِ. وَإِذَا أَمَكَّنِي تَرْجَمَةُ ذَلِكَ إِلَى اللُّغَةِ الْحَدِيثِيَّةِ، سَنَعُودُ إِلَى كَانُظ، وَإِلَى نَفْدِهِ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْعَالَمِ التَّوْمِينِيِّ - أَيِ عَالَمِ اللَّهِ - وَالْعَالَمِ الظَّاهِرِيِّ - أَيِ الْعَالَمِ الَّذِي نُعَايِنُ فِيهِ الْأَشْيَاءَ عِلْمِيًّا بِحَوَاسِنَا. وَرَأَى الْحِدَارَ الْفَاصِلَ بَيْنَ هَذَا الْعَالَمِ وَالْعَالَمِ الْمُتَسَايِي.

إِذَا تَنَاوَلْنَا نَظْرِيَّةً كَانَتْ، ثُمَّ عُدْنَا لِتَطْبِيقِهَا عَلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْعَالَمِ التُّومِينِيِّ وَالْعَالَمِ الظَّاهِرِيِّ هُوَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْحَيَاةِ تَحْتَ السَّمَاءِ، أَيْ الْعَالَمِ التُّومِينِيِّ، وَالْحَيَاةِ تَحْتَ الشَّمْسِ، أَيْ الْعَالَمِ الظَّاهِرِيِّ. وَجَوْهَرُ الصَّرَاحِ الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ الْجَامِعَةُ فِي السَّفَرِ هُوَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَحْتَ الشَّمْسِ تَنْتَهِي فِي التَّهَيَّاتِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَهٌ - أَيْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حَيَاةٌ تَحْتَ السَّمَاءِ - بَلْ كَانَتْ الْحَيَاةُ قَاصِرَةً عَلَى هَذَا الْجَانِبِ، تَحْتَ الشَّمْسِ، أَيْ عَلَى الْعَالَمِ الظَّاهِرِيِّ، فَالِاسْتِنْتَاجُ الَّذِي تَوَصَّلَ إِلَيْهِ فَيَلْسُوفُ ذَلِكَ الْعَصْرِ تَجَلَّى فِي عِبَارَةِ "بَاطِلِ الْأَبَاطِيلِ الْكُلِّ بَاطِلٌ".

تَعْبِيرُ "بَاطِلِ الْأَبَاطِيلِ" هُوَ صِيغَةٌ مُبَالَغَةٍ. وَهُوَ شَبِيهُ بِتَعْظِيمِ الْمَسِيحِ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، عِنْدَ وَصْفِهِ بِالْمَلِكِ. وَمَاذَا دُعِيَ؟ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ. هَذَا أُسْلُوبٌ عِبْرِيٌّ نَقُولُ بِهِ: "الْمَلِكُ الْأَعْلَى، وَالرَّبُّ الْأَعْلَى"، لِأَنَّهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى تَعْبِيرِ "بَاطِلِ الْأَبَاطِيلِ". فَإِنَّهَا لِمُبَالَغَةٍ أَنْ نَسْتَنْتِجَ أَنَّ الْكُلَّ بَاطِلٌ.

الْمَقْصُودُ بِكَلِمَةِ "vanity" هُنَا لَيْسَ كِبْرِيَاءَ أَحَدِهِمْ، حِينَ نَصِفُهُ بِأَنَّهُ مَعْرُورٌ (vain) وَتَرْجِيئِي، لِأَنَّهُ يَجْلِسُ لِلتَّرْتِيبِ فِي عُرْفَةٍ وَضَعُ مُسْتَحْضَرَاتِ التَّجْمِيلِ، وَيَضَعُ كُلَّ مُسْتَحْضَرَاتِ التَّجْمِيلِ، لِأَنَّهُ مَعْرُورٌ جِدًّا. لَيْسَ هَذَا مَعْنَى أَوْ دَلَالَةٌ كَلِمَةِ vanity هُنَا. فَالْكَلِمَةُ مُرَادِفَةٌ لِلْعَبَثِ. إِذَنْ، مَا الَّذِي يَفْصِدُهُ كَاتِبُ سَفَرِ الْجَامِعَةِ؟ أَنَّهُ مِنْ زَاوِيَةِ الْعَالَمِ الظَّاهِرِيِّ، دُونَ وُجُودِ إِلَهٍ، مِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ مَا سَنُوجِهُهُ فِي التَّهَيَّاتِ هُوَ عَبَثٌ الْعَبَثِ. فَكُلُّ مَا نَفَعَلَهُ عَبَثٌ. وَنَحْنُ مَسْجُونُونَ فِي دَائِرَةٍ، وَحَلَقَةٍ مُفْرَعَةٍ، بِلا بَدَايَةٍ، أَوْ هَدَفٍ، أَوْ مَعْنَى، أَوْ غَايَةٍ مُهِمَّةٍ. فَالشَّمْسُ تُشْرِقُ، وَالشَّمْسُ تَغِيبُ. ثُمَّ كَمَا قَالَ هِيمِنْجُوَاي، الشَّمْسُ تُشْرِقُ مِنْ جَدِيدٍ وَتَغِيبُ مِنْ جَدِيدٍ، وَلَا تَذْهَبُ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ. هَذِهِ هِيَ الْفَلَسَفَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلْعَدَمِيَّةِ. "فَالْحَيَاةُ مُمَثَّلٌ رَدِيءٌ يَتَبَخَّرُ، وَيُودِّي دَوْرَهُ سَاعَةً عَلَى الْمَسْرَحِ، ثُمَّ لَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ فِيمَا بَعْدُ". وَهِيَ "قِصَّةٌ يَرُويهَا أَحْمَقٌ، مَلِيئَةٌ بِالصَّحِيحِ وَالْحَقِّ، وَلَا تَعْنِي شَيْئًا"، أَيْ إِنَّهَا عَدَمِيَّةٌ وَبِلا مَعْنَى.

قِلَّةٌ هُمُ الْفَلَسَفَةُ الَّذِينَ يَتِمَادُونَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ. فَمُعْظَمُ الْفَلَسَفَةِ عَنَرِ التَّارِيخِ الَّذِينَ رَفَضُوا الْإِيمَانَ الْمُتَكَامِلَ بِوُجُودِ اللَّهِ حَاوَلُوا اخْتِرَاعَ نَظَرِيَّةٍ إِلَى الْعَالَمِ، أَوْ نِظَامٍ فِلْسَافِيٍّ، يَقَعُ فِي مَكَانٍ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْقُطْبَيْنِ. لَكِنْ مِنْ نَاحِيَةٍ، أَيْنَمَا وَجَدْتَ نَفْسَكَ عَلَى الْخَطِّ، سَتَقْتَبِسُ أَفْكَارًا مِنْ أَحَدِ التَّقْبِضَيْنِ أَوْ الْآخَرِ. لَطَالَمَا قِيلَ عَنِ الْحَرَكَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، الشَّهِيرَةِ لِلْغَايَةِ، إِنَّهَا فِي التَّهَيَّاتِ قِمَّةٌ فِي السَّدَاجَةِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ يُخْبِرُنَا بِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ إِلَهٌ، وَبِأَنَّنا أَتَيْنَا مِنَ الْعَدَمِ، أَوْ بِالْمُضَادَّةِ، مِنْ حَدَثٍ بِلا مَعْنَى، وَبِأَنَّ حَيَاتِنَا مُتَّجِهَةٌ لَا مَحَالَةَ صَوْبَ الْفَنَاءِ. وَبِالتَّالِي، فَإِنَّ قُطْبِي الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ هُمَا اللَّا مَعْنَى مِنْ حَيْثُ مَنَشَأْنَا، وَاللَّا مَعْنَى مِنْ حَيْثُ مَصِيرُنَا. وَمَعَ ذَلِكَ، يُكَافِحُ الْإِنْسَانِيَّةُ لِأَجْلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَكِرَامَةِ الْإِنْسَانِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْقُطْبَيْنِ. وَأَقُولُ دَائِمًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ: "إِنَّ كِلْتَا قَدَمَيْكَ مُثَبَّتَانِ فِي الْهَوَاءِ. وَكَمَا اعْتَادَ فَرُوسِيْسُ شِيَمِرُ أَنْ يَقُولَ، أَنْتَ عَلَى مَتْنِ قِطَارِ الْمَلَاهِي، دُونَ كَوَابِحِ، لِأَنَّكَ تُرِيدُ إِجْبَادَ مَعْنَى بَيْنَ قُطْبِي اللَّا مَعْنَى. وَفِي التَّهَيَّاتِ، أَنْتَ تَعَلِّقُ آمَالَكَ عَلَى الْمَشَاعِرِ، وَفَقَطَ لَا تَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ لِلذَّهَابِ إِلَى حَيْثُ يَقُودُكَ الْحَادِثُ، أَيْ نَحْوِ الْعَدَمِيَّةِ التَّامَّةِ".

هَذَا مَثَلٌ وَاحِدٌ لِكَيْفِيَّةِ اقْتِبَاسِ النُّظْمِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ الْقُطْبَيْنِ مِنَ الْقُطْبَيْنِ. فَلَا أَسَاسَ لِلْإِيمَانِ بِكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ لَوْ كُنَّا حَوَادِثَ كَوْثِيَّةً. لَكِنَّ الْإِنْسَانِيَّيْنَ يُحَارِبُونَ لِأَجْلِ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ، وَبِذَلِكَ، يُخْتَلِسُونَ مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ، وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ- الْمَسِيحِيَّةِ، مَعَ أَنَّهُمْ يَرْفُضُونَ تَمَامًا مَصْدَرَ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ. هَذِهِ هِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي أُحَاوِلُ تَوْضِيحَهَا، وَهِيَ أَنَّهُ ثَمَّةُ مُسَاوَمَاتٍ بَيْنَ الْقُطْبَيْنِ.

أُحَاوِلُ الْآنَ تَقْدِيمَ الْخُطُوطِ الْعَرِيضَةِ، وَتَبْسِيطِ الْأَمْرِ بِأَقَلِّ حَدٍّ مُمَكِّنٍ مِنَ التَّخْرِيفِ. لَكِنَّ هَذَا مَا رَأَاهُ كَانِظٌ فِي حُجَّتِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. وَهَذَا مَا رَأَاهُ دُوسْتُوَيْفْسْكِ حِينَ قَالَ: "إِذَا لَمْ يُوْجَدْ أَحَدٌ هُنَا، يَكُونُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ مُحَقَّقًا فِي فَرْضِيَّتِهِ. تَذَكَّرُوا تِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْوَارِدَةَ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ: 'بُدُونِ مَسِيحٍ، لَا رَجَاءَ لَكُمْ'. وَحِينَ كَتَبَ الرَّسُولُ بُولُسُ لِأَهْلِ كُورِنْثُوسَ قَالَ: 'إِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، وَإِنْ كَانَ 'الَّذِينَ رَقَدُوا فِي الْمَسِيحِ أَيْضًا هَلَكُوا، ... فَإِنَّا أَشَقَى جَمِيعِ النَّاسِ'. فَإِنْ لَمْ يَرُقْ لَكُمْ أَنَّنَا مُؤْمِنُونَ، لَا تَغْضَبُوا مِنَّا، وَلَا تُعَادُونَا، بَلْ أَشْفِقُوا عَلَيْنَا. فَكَّرُوا فِي كُلِّ الْمَرَجِ الَّذِي فَاتْنَا، وَالَّذِي تَنْعَمُونَ بِهِ. فَإِنَّا نَجُولُ فِي الْأَنْحَاءِ، مُوجَّهِينَ أَعْيُنَنَا بِسَدَاجَةٍ إِلَى اللَّهِ، وَمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَمُتَكَلِّبِينَ عَلَيْهِ، إِلَى آخِرِهِ، بَيْنَمَا الْمَسِيحُ رَجُلٌ مَيِّتٌ. وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كَرَسْتُ حَيَاتِي لِرَجُلٍ مَيِّتٍ، فَيَا لَهَا مِنْ مَضِيعَةٍ لِطَاقِي وَحَيَاتِي. وَإِنْ كُنْتُمْ تَحْتَلِفُونَ مَعَ قَنَاعَاتِي، فَلَا تَغْضَبُوا مِنِّي، بَلْ أَشْفِقُوا عَلَيَّ". قَالَ بُولُسُ إِنَّنَا سَنَكُونُ مُثِيرِينَ لِلشَّفَقَةِ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ أَسَاسٌ تَبْنِي عَلَيْهِ ثِقَتَكَ فِي إِلَهِ الْكُونِ، فَلَا أَسَاسَ لَدَيْكَ لِأَيِّ رَجَاءٍ، وَسَيُؤُولُ بِكَ الْأَمْرُ إِلَى الْيَأْسِ.

لَمْ يَصِلْ كَانِظٌ إِلَى حَدِّ الْيَأْسِ، بَلْ قَالَ إِنَّ نَسِيحَ بَشَرِيَّتِنَا بِرُمَّتِهِ، وَكُلَّ عَظْمَةٍ فِي أَجْسَادِنَا تَصْرُخُ إِلَيْنَا، مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى الَّتِي نَعِي فِيهَا مَا حَوْلَنَا، بِأَنَّ حَيَاتِنَا مُهْمَةٌ، وَبِأَنَّ لِحْيَاتِنَا مَعْنَى، وَبِأَنَّ التَّعَبَ الَّذِي نَتَّعِبُهُ - أَيَّ الْعَرَقِ، وَالذَّمِّ، وَالذُّمُوعِ الْمُتَهَمَةِ بِسَبَبِ الْآمِنَا - لِكُلِّ ذَلِكَ مَعْنَى. وَإِذَا اعْتَقَدْنَا عَكْسَ ذَلِكَ، فَحَرِيٌّ بِنَا أَنْ نَضَعَ حَدًّا لِهَذَا التَّعَبِ، وَنَضَعَ نَهَايَةَ لِبُؤْسِنَا. إِلَى هَذَا الْحَدِّ وَصَلَتِ الْفُلْسُفَةُ. أَلْبِيرُ كَامُو، الْفَيْلَسُوفُ الْوُجُودِيُّ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِينَ، تَوَصَّلَ إِلَى الْإِسْتِنْتِاجِ الْقَائِلِ بِأَنَّ الْأَمْرَ الْجَادَّ الْوَحِيدَ الَّذِي يَتَّبَقِي عَلَى الْفَلَسُفَةِ أَنْ يُفَكَّرُوا فِيهِ هُوَ الْإِنْتِحَارُ. وَيَقْصِدُ كَامُو بِبَسَاطَةٍ أَنَّكَ إِذَا تَنَبَّهْتَ إِلَى حَقِيقَةِ عَدَمِ وُجُودِ إِلَهٍ، وَعَدَمِ وُجُودِ مُطْلَقَاتٍ، سَتُدْرِكُ أَنَّهُ لَا يُوْجَدُ مَعْنَى مُطْلَقٌ. قَدْ يَرُوقُ لَكَ الْأَمْرُ لِبَعْضِ الْوَقْتِ. فَقَدْ تُسْعِدُكَ الْعُظْلَةُ الْمَدْرَسِيَّةُ، وَأَلَّا يَرْمُقَكَ الْمُعَلِّمُونَ بِنَظَرَاتِهِمْ الْإِنْتِقَادِيَّةَ بَعْدَ الْيَوْمِ، إِلَى آخِرِهِ. فَلَدَيْنَا عُظْلَةٌ مِنْ إِلَهِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي يَقُولُ إِنَّهُ سَيَحَاسِبُنَا عَلَى كُلِّ أَفْعَالِنَا. وَحِينَ نَكْتَشِفُ أَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مَوْجُودٍ، نَقْفُزُ فِي الْهَوَاءِ وَنَحْتَفِلُ قَائِلِينَ: "أَنَا حُرٌّ. حَمْدًا لِلَّهِ. أَنَا حُرٌّ. أَسْتَطِيعُ فِعْلَ مَا يَحْلُو لِي. يُمَكِّنُنِي أَنْ أَعِيشَ بِطَرِيقَتِي". يَبْدُو ذَلِكَ رَائِعًا إِلَى أَنْ تَرَاهُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ وَتُدْرِكُ ثَمَنَهُ. وَهَذَا مَا قَالَهُ كَامُو. فَمَثَلًا، لَوْ كُنْتُ لَنْ تُحَاسَبَ فِي النَّهَائِيَّةِ، فَمِنَ السَّهْلِ أَنْ تُدْرِكَ أَنَّكَ فِي النَّهَائِيَّةِ بِلَا قِيَمَةٍ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ بِلَا أَهْمِيَّةٍ. وَإِذَا فَكَّرْتَ فِي الْأَمْرِ مَلِيًّا، سَتُدْرِكُ سَبَبَ قَوْلِ كَامُو إِنَّ الْأَمْرَ الْوَحِيدَ الْمُتَبَقِّيَ هُوَ الْإِنْتِحَارُ.

لهذا، جان بول سارتز، في كتابه الصغير بعنوان "الغثيان" - وقد أُطلق على الكتاب عنوان "الغثيان" لأن هذا كان تعليقه التهايلي على حالة الإنسان. وقد عرف الإنسان بأنه عاطفة غير مجدية. هذا مفهوم مفعم بالمعاني بالنسبة لسارتز، لأن سارتز لاحظ أننا نحن البشر لسنا آلات، أو أناسا اليين، أو أشياء خاملة. لكننا بشر نعيش، وندنس، ونفكر، ونختار، ونهتم. فالحياة البشرية حياة اهتمام. والحياة البشرية حياة عاطفية. وماذا لو كانت كل الأمور التي نُحِبُّها، وتكثرت بها، عديمة القيمة؟ ماذا لو كانت كل الأمور التي نهتمُّ بها ونُحِبُّها بلا معنى؟ عندئذٍ، تكون مشاعرِك ورغباتك باطلة. هذا ما قاله سارتز. فإنك عاطفة غير مجدية. فكل اهتماماتك تؤول إلى لا شيء.

هذا ما أراد نيثشه الوصول إليه بعرض مفهومه عن العدمية، بعد كإنظ في القرن التاسع عشر. بتعغير آخر، الفلاسفة الوجوديون - الفلاسفة الوجوديون الملحدون، أي العدميون - قالوا الآتي: "إذا لم نستطع أن نعرف أن الله موجود، فلا يكفي أن نبي إيماننا على أمل في وجود أحدهم في مكان ما في السماء. فلو دلت البراهين على التقيض، ولو كان صحيحا حقا أن الحياة انبتقت دون مبرر من الطين، فيجب أن نتحل بالشجاعة الأخلاقية والفكرية لنواجه النتائج التهايلية الكئيبية، ونحدق فيها مباشرة قائلين: 'حسنا، أنت على حق. أنا من الطين وإلى الطين أعود. أنا جرتومة كبيرة فوق ترس واحد لعجلة كونية ضخمة تدور متجهة صوب العدم. هذا واقعي ويجب أن أواجهه، ولن أُلجأ إلى الدين للهروب منه'".

لاحظوا أن العاطفة التي تحرك الثقافة المعاصرة هي الهروب، بإتباع مذهب البحث عن المنفعة. وفلسفة البحث عن المنفعة برمتها تقول إتنا نجد المعنى من خلال المنفعة. صاعف منعتك، وسيتناقص ألمك. هذه فلسفة تيموثي ليري - زد من وعيك الداخلي، وأنسجم مع المجتمع، وأنفصل عن واجباتك. فلنحتفل وننثر الورود، وننطلق في رحلة إلى أرض الأحلام، حيث لا نضطر بعد للتفكير. هذا هروب من الألم، ومن التفكير فيما نُحِبُّنا به الأغاني الشهيرة، والأفلام، وآباء العلم، أننا وحوش في ثياب بشر، بلا أهمية على الإطلاق. وهذه الرسالة يبوَقُّ بها في آذان الأولاد مرارا، ولهذا يطرُدونها عنهم بصوت الموسيقى، أو المخدرات، أو آية أنواع أخرى من الإدمان، كوسيلة هروب. قال نيثشه والمشككون إن هذا ليس المخدر الوحيد. فالمخدر الأسمى للهروب من العدمية، بحسب ملجدي القرن التاسع عشر، هو أفيون الدين.

إذا كنت مؤمنا، فإنني على قناعة بأنه فقط بعد إيمانك بأسبوعين قال لك أحدهم: "السبب الوحيد لكونك مؤمنا هو أنك تستخدم إيمانك عكازا. فالعكاز هو شيء تستخدمه ليساعدك على العمل، والتحرك، فيما أنت مقعد". هذا هو العرض من العكاز. ونحن نهم باستخدام الدين كعكاز نفسي، لأننا لا نستطيع أن نحتمل الرسالة التي نستقبلها من كل صوب، ولهذا نلجأ إلى الدين كأفضل وسيلة للهروب، وأنسب مخدر، وأفضل عكاز، ما وصفه ماركس بأنه

أَفْيُونُ الشُّعُوبِ، أَيِ الْمُخَدَّرِ الَّذِي يُجَدَّرُ حَوَاسِنَا لِلتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِمْنَانَا. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، لَيْسَ الْمُتَدَيِّنُونَ سِوَى نَوْعِ آخَرَ مِنْ مُعْتَنِقِي مَذْهَبِ الْبَحْثِ عَنِ الْمُتَعَةِ، يَبْحَثُونَ عَنْ مُتَعَتِهِمْ فِي الْهُرُوبِ مِنْ وَقَاعِ الْعَوَاطِفِ الْبَاطِلَةِ، وَالتَّعَبِ الْعَبَثِيِّ، وَالْمَوْتِ.

فِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ، حِينَ نَدْرُسُ أَفْكَارَ مُلْحِدِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ، نُلَاحِظُ أَنَّهُمْ لَمْ يَبْدُلُوا جُهْدًا كَبِيرًا لِدَخْصِ وُجُودِ اللَّهِ، بَلْ كَانَ افْتِرَاضُهُمْ الْأَوَّلِيُّ هُوَ "لَا يُوجَدُ إِلَهٌ". وَالْمُشْكَلَةُ الْكُبْرَى الَّتِي كَانَ مَارْكَسُ، وَفُويرْبَاخُ، وَنِيْتْشِهْ، وَسِيْجْمُونْدُ فُرُويْدُ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ الْعَمَالِقَةِ وَالشُّكُوكِيِّينَ فِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ، أَوْ السُّؤَالِ الْأَهْمُ الَّذِي حَاوَلُوا الْإِجَابَةَ عَنْهُ هُوَ: "بِمَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ إِلَهٌ، لِمَ الْبَشَرُ مُتَدَيِّنُونَ عَلَى نَحْوِ لَا شِفَاءَ مِنْهُ؟ لِمَ يُوصَفُ الْإِنْسَانُ فَقَطْ بِأَنَّهُ عَاقِلٌ، بَلْ يُوصَفُ الْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ بِأَنَّهُ مُتَدَيِّنٌ؟ فَأَيْنَمَا دَهَبْنَا حَوْلَ الْعَالَمِ، نَجِدُ أَنَّ الْأَعْلِيَّةَ السَّاحِقَةَ مِنَ الْبَشَرِ مُنْخَرِطُونَ فِي نَشَاطِ دِينِيٍّ مِنْ نَوْعِ مَا. وَمِنَ الْمَنْظُورِ الْمَسِيحِيِّ، يُمَكِّنُ لِتِلْكَ الدِّيَانَةِ أَنْ تَكُونَ وَنَبِيَّةً بِالْكَامِلِ، لَكِنَّهَا تَظَلُّ دِيَانَةً. وَبِالتَّالِي، الْجَوَابُ الْأَكْثَرُ شُيُوعًا الَّذِي قَدَّمَهُ أَنَسُ مِثْلُ مَارْكَسُ، وَفُويرْبَاخُ، وَفُرُويْدُ، وَغَيْرُهُمْ، هُوَ أَنَّ الظَّاهِرَةَ الَّتِي تُفَسِّرُ عُمُومِيَّةَ التَّدْيِينِ هِيَ الْخَوْفُ النَّفْسِيُّ، أَيِ إِنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسِيَّ لِإِيْمَانِ الْبَشَرِ بِاللَّهِ هُوَ خَوْفُهُمْ مِنْ عَوَاقِبِ عَدَمِ وُجُودِ إِلَهٍ. "السَّبَبُ الرَّئِيسِيُّ الَّذِي يَجْعَلُنَا نَخْلُقُ اللَّهَ عَلَى صُورَتِنَا، حَسَبَمَا قَالَ فُويرْبَاخُ، "هُوَ أَنَّنَا نُدْرِكُ أَنَّهُ دُونَ إِلَهٍ، نَحْنُ ضَائِعُونَ، وَفِي حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا. وَنُصْبِحُ بِالْفِعْلِ عَاطِفَةً غَيْرَ مُجْدِيَّةٍ. وَلَنْ نَسْتَطِيعَ تَحْمُلَ كَابَةِ الْعَدَمِيَّةِ". إِذَنْ، لِلْهُرُوبِ مِنَ الْعَدَمِيَّةِ، نَتَجَاوَزُ كُلَّ الْخِيَارَاتِ الَّتِي تَقَعُ فِي الْوَسْطِ، وَنَعْتَرِفُ بِوُجُودِ اللَّهِ كَمُخَدَّرٍ، لِتَخْدِيرِ حَوَاسِنَا وَتَخْفِيفِ الْإِمْنَانَا. إِذَنْ، كَانَتْ الْحُجَّةُ الْأُولَى ضِدَّ الْإِيْمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ فِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ هِيَ أَنَّ الْإِيْمَانَ بِوُجُودِ اللَّهِ هُوَ نِتَاجُ احْتِيَاجِ نَفْسِيٍّ لِأَشْخَاصٍ سَادَجِينَ.

فِي الْمَحَاضِرَةِ الْقَادِمَةِ، سَادْرُسُ الْأَمْرَ مِنْ مَنْظُورِ مَسِيحِيٍّ، لِنَرَى مَا إِذَا كَانَ الْعَكْسُ صَحِيحًا، أَوْ مَا إِذَا كَانَ يُمَكِّنُ لِلْعُكَّازِ أَنْ يَصْلُحَ لِلْقَدَمِ الْآخَرَى.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رِعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Bible College Reformation) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْنَا لَاهُوتِيُونَ" وَ"أَدَهْشَنِي الْأَم".